في الفلسفة الإسلامية

٢ ـ إخوان الصفـــاء

الأستاذ عمر الدسوقي

هل هم شيعة باطنية ؟

لقد أقر إخوان الصفاء على أنفسهم بالتشيع في غير ما موضع من الرسائل . فمن ذلك قولهم عن السبب الذي حداهم لكتابة هذه الرسائل : « لكيما إذا نظر فيها إخواننا وسمع قراءتها أهل شيعتنا وفهموا بعض معانيها ، وعرفوا حقيقة ما هم مقرون به من تفضيل أهل بيت النبي صلى الله عليه وسلم ؛ لأنهم خزان علم الله ووارثو علم النبيوات ، وتبين لهم تصديق ما يعتقدون فيهم من العلم والمعرفة والفهم والتمييز والبصيرة في الآفاق »[1]

ومنها : « واعلم يا أخي بأن لكل نفس من المؤمنين أبوين في عالم الروح كما أن لأجسادهم أبوين في عالم الأجساد ، كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لعلي رضي الله عنه : أنا وأنت يا علي أبوا هذه الأمة . وهذه الأبوة روحانية لا جسمانية »[2]

هذا وقد عقدوا فصلاً خاصاً بينوا فيه الطوائف التي تنتمي إلى الشيعة ، وقد انتقدوا بعضها واسترضوا بعضها ، وأخذوا يتبرأون ممن يدعي التشيع وهو يرتكب المنكرات ويقترف الموبقات ، ويحملون على من يقول بأن المهدي المنتظر مستتر من خوف المخالفين ، كما أنهم حملوا على من يبكي الأموات من أهل البيت حملة شعواء ، وهاك ما يقولون : « إن قوماً من أشرار الناس جعلوا التشيع ستراً لهم عما يحذرون من الآمرين عليهم بالمعروف . . . وإذا نُهوا عن منكر فعلوه بارزوا بإظهار التشيع واستعاذوا بالعلوية على من ينكر عليهم أو ينهاهم . لبئس ما كانوا يعملون . ومن الناس طائفة ينسبون إلينا بأجسادهم وهم براء بنفوسهم منا ويسمون أنفسهم بالعلوية وما هم من العلويين ، ولكنهم من أسفل السافلين ، لا يعرفون من أمرنا إلا نسبة الأجساد ... فهم أبعد الناس عن أهل ملتنا ، وأعدى الناس لشيعتنا ، وأغفل الناس عن حقيقة أمرنا وأسرار حكمتنا . . . ومن الناس طائفة قد جعلت التشيع مكسباً لهم مثل النائحة والقصاص لا يعرفون من التشيع إلا التبرى والشتم والطعن واللعن والبكاء وترك طلب العلم وتعلم القرآن ، وجعلوا شعارهم لزوم المشاهد وزيارة القبور كالنساء الثواكل ، يبكون على فقد أجسامنا[1] وهم بالبكاء على أنفسهم أولي . ومن الشيعة من يقول : إن الأئمة يسمعون النداء ويجيبون الدعاء ، ولا يدرون حقيقة ما يقرون به وصحة ما يعتقدون . ومنهم من يقول : إن الإمام المنتظر مختف من خوف المخالفين . كلا ! بل هو ظاهر بين ظهرانيهم يعرفهم وهم له منكرون كما قيل :

يعرفه الباحث من جنسه وسائر الناس له منكر[2]

نرى مما تقدم أنهم لا ينكرون التشيع ولكنهم يريدونه على شكل خاص ، وأنهم يبرأون من هؤلاء الذين لوثوا اسمهم وارتكبوا المنكرات والموبقات وادعوا أنهم علويون . فهم بذلك فرقة من الشيعة ترمي إلى تعاليم خاصة ، وغايتها إصلاح الطائفة وتهذيبها بالتعليم . ونرى كذلك أنهم يقولون بالمهدي المنتظر وأنه كان موجوداً إبان تأليف هذه الرسائل ، ولعله أحد من ألفها كما يذهب إلى ذلك بعض المستشرقين . وأنهم كانوا يقولون بأن علياً وصي النبي عليه السلام . وليس في ذلك أصرح من قولهم في باب مخاطبة المتشيعين : « ومما يجمعنا وإياك أيها الأخ البار الرحيم محبة نبينا عليه السلام وأهل بيته الطاهرين ، وولاية أمير المؤمنين علي بن أبي طالب خير الوصيين صلوات الله عليهم أجمعين[3] »

أما نسبتهم إلى الاسماعيلية الباطنية فلم تثبت بصفة جازمة ، بيد أن من يدرس آراء هذه الطائفة وآراء إخوان الصفا يجد تشابهاً عجيباً ، وإن كان الأولون أكثر صراحة من الآخرين . على أن الأستاذ كازانوفا يقول : « لقد وجدت مخطوطة في المكتبة الأهلية بباريس مفقودة الصفحات الأولى والعنوان ، وتقرأ على الصفحة السادسة منها ما يلي : فصل من رسائل إخوان الصفا ، وفي ابتدائها : القول على السر المخزون والعلم المصون من بطن الرسالة الجامعة من رسائل إخوان الصفا . ووردت فيها الجملة

(١) رسائل ج ٤ ص ٢٣٤
(٢) ج ١ ص ١٥٧

(١) هذا يؤيد من يقول إن الرسائل أملاها بعض الأئمة من آل البيت
(٢) الرسائل ج ٤ ص ١٩٩
(٣) الرسائل ج ٣ ص ٢٤٢

المشهورة : إعلم يا أخى أيدنا الله وإياك بروح منه التى يتكرر ذكرها فى كل صفحة من الرسائل » . وقد وجد كازانوفا أن هذه الرسالة الجامعة مصطبغة بالصبغة الإسماعيلية ، متلبسة بشمول الألوهيـة ، ونظرية الفيثاغوريين فى الأعداد . ويقول فى ذلك : « ما أرانى إلا مصيباً في القول بأن فلسفة الإسماعيلية جميعها مبثوثة فى رسائل إخوان الصفا ؛ فالقول بالإمام المنتظر الذى سوف يظهر ليعيد السلام إلى العالم يمثل امتزاج نظريات الأفلاطونية الحديثة بالاعتقاد بعودة المسيح[1] »

وقد جاء فى أحد أعداد جريدة آسيا[2] فصل هـذا عنوانه : « بحث جديد على الإسماعيلية أو الباطنية بالشام المعروفين بالحشاشين » . وقد قال كاتبه ما يأتى : « إن سنان بن سليمان الملقب برشيد الدين هو من أجل وأفخم رؤساء الإسماعيلية ، وقد خدم فى ألموت المقدمين الذين كانوا قبله ، وزاول علوم الفلسفة وأطال نظره فى كتب الجدل والخلاف ، وأكب على مطالعة رسائل إخوان الصفا »

ويقول المحبى فى خلاصة الأثر : « وحاصل تلك الرسائل ليس إلا مذهب الباطنية الإسماعيلية ، وهم أنحاء شتى ، ومعظم القول فى هذه الشيعة ، من شيعتهم تناسخ الأرواح ، وادعاء حلول البارى تعالى فى الأنبياء المشهورين من آدم إلى محمد عليهم السلام وفى أئمة آل البيت — وآخرهم المهدى — ويعظمونه على الجميع . والاسماعيلية يوافقون الإمامية فى ذلك[3] »

وقد ثبت تاريخياً أن المغول عند فتحهم لقلعة (ألموت) مركز رؤساء الاسماعيلية عثروا على كثير من نسخ رسائل إخوان الصفا[4] . وقد جاء فى رسالة الإنسان والحيوان المطبوعة فى مصر خطأ تحت عنوان الجامعة : « نحن لبسنا السواد وطلبنا بثأر الحسين بن على عليهما السلام وطردنا البغاة بنى مروان ... ونحن نرجو أن يظهر من بلادنا الإمام المنتظر[1] »

وقد تضافر الكتاب قديماً وحديثاً على نسبة هذه الجماعة إلى الاسماعيلية الباطنية ، ومنهم ابن تيميـة وابن حجر والألوس وغيرهم ، وقد دعاهم إلى ذلك أن نشاط الإخوان فى بث تعاليمهم يشبه نشاط الاسماعيلية وجدهم فى نشر مذهبهم وتشكلهم بما يلائم مصلحتهم ، وليسهم لكل حال لبوسها ، ومخاطبتهم الناس على حب أهوائهم وأمزجتهم ، واستعمالهم السحر والطلاسم والرقى والتعاويذ فى إقناع الناس بمقدرتهم ومبلغ علمهم[2] . ثم فى تكتمهم وشدة حرصهم على ألا يطلع على مذهبهم إلا من دخل فى شيعتهم وقولهم بالتقيـة والإمام المنتظر ووصاية على رضى الله عنه ... الخ

تسامحهم الدينى

ومما يقوى صلتهم بالاسماعيلية رحابة صدرهم لجميع المذاهب والديانات والعلوم ، فقد ثبت أن الاسماعيلية في أوائل دخولهم بلاد الهند[3] كانوا يوافقون البوذيين على عقائدهم حتى يستميلوهم إليهم ، ثم يكملون النقص فى هـذه العقائد بنظرية الاسماعيلية الأساسية ، وهى قداسة على رضى الله عنه وعودته ، ثم يجعلون برهما محمداً ، ووصنو علياً ، وآدم سيفا[4]

أما إخوان الصفا ، فكانوا أمام جميع المذاهب والديانات غير متعصبين : « وبالجملة ينبغى لإخواننا — أيدهم الله تعالى —

(١) رسالة الطيلوى ص ٧١ — ٧٢

(٢) مقدمة زكى باشا لرسائل إخوان الصفا طبعة مصر وعدد جريدة آسيا هو عدد يناير سنة ١٨٥٥ المحفوظ بدار الكتب المصرية

(٣) خلاصة الأثر جـ٤ ص ٦ و ٧ الطيلوى ص ٧٢

(٤) أحمد أمين فى بداية الفلسفة

(١) الرسالة الجامعة ص ٨٣

(٢) راجع ما كتبه السير توماس أرنولد فى كتابه الدعاية الاسلامية لتعرف مدى نجاح الاسماعيلية فى نشر تعليمهم ، وإدخال الهنود والبوذيين فى ملتهم واستعمالهم شتى الوسائل والحيل حتى وتقيد أسلمتهم ، ووازن بين هذا وبين ما جاء فى الرسائل من الخطب الخاصة لكل صنف من الناس ، ومن استعمالهم السحر والطلاسم والنجوم فى إقناع خصومهم

(٣) أول من دخل الهند من الاسماعيلية هو عبد الله اليمنى الاسماعيلى جاءها حوالى ١٠٦٧م وتبعه نور الدين الذى تسمى باسم نور ستاجر ، وقد قدم من ألموت إلى جوجرات فى حكم الملك الهندى سدهاراج (١٠٩٤ — ١١٤٣م)

(٤) كتاب الدعاية الاسلامية للسير توماس أرنولد وترجمة الكاتب فى فصل عن انتشار الاسلام بالهند

ألا يعادوا علماً من العلوم ، أو يهجروا كتاباً من الكتب ، وألا يتعصبوا على مذهب من المذاهب ؛ لأن رأينا ومذهبنا يستغرق المذاهب كلها ويجمع العلوم كلها[1] »

ويقولون : « واعلم بأن غرض الأنبياء — عليهم السلام — وواضعي النواميس الآلهية أجمع غرض واحد وقصد واحد وإن اختلفت شرائعهم وأزمان عبادتهم وأماكن بيوتهم وصلواتهم ، كما أن غرض الأطباء كلهم غرض واحد في حفظ الصحة الموجودة واسترجاع الصحة المفقودة وإن اختلفت علاجاتهم باختلاف الأمراض العارضة للأبدان[2] » . فالتوراة والإنجيل والقرآن وغيرها من الكتب الدينية ، السماوية وغير السماوية ، عندهم سواء . وكأني بهم يحاولون أن يستوعبوا الديانات كلها في دين واحد ومذهب واحد . وليس هناك أوضح من قولهم : « فالله أرسل روحه إلى كل الناس ، لا فرق بين النصراني والمسلم وبين الأسود والأبيض »

وقد ثبت أن جمعية بغداد التي هي فرع من جمعية إخوان الصفا ، والتي كان يختلف إليها أبو العلاء المعري كما مر بنا ، كانت تجمع السني والشيعي واليهودي والنصراني والصابئي والدهري

وقد حدثنا أبو حيان التوحيدي في المقابسات قائلاً : « إن من أعضائها يحيى بن عدي وأبو إسحق الصابي وأبو إسحق النصيبي ومانى المجوسي ... الخ » . وهذا دليل واضح على رحابة صدرهم وعظم دعايتهم وتعدد طرق تبشيرهم[3]

« يتبع » عمر الدسوقي

مدير كلية المقاصد الاسلامية ببيروت

(١) الرسائل ج ٤ ص ١٠٥

(٢) ج ٢ ص ١٢٠

(٣) رسالة الطيالسي ص ٦٥

حكم في القضية ن ٥٠٩ عسكرية طنطا سنة ٩٤٢ ضد محمود علي الجنايني بالحبس شهر شغل والنشر بتاريخ ٢٤ ديسمبر سنة ٩٤١ وذلك لبيعه خبزاً بسعر أكثر من المحدد .

إذا...

قصيدة من الشعر الانجليزي

إذا احتفظت بصوابك بينما يفقد كل من حولك صوابهم فيتهمونك بما لم تجرم يداك ؛

إذا وثقت بنفسك بينما يتردد الرجال في أمرك وحسبت مع ذلك لترددهم حسابه ؛

إذا صبرت وانتظرت ولم يضجرك الصبر والانتظار ، أو تقولوا عليك ولم تُغرِك أقاويلهم بأقاويل مثلها تبتدعها ؛

إذا كرهوك وملكت نفسك فأمسكت عن كراهتهم ، ومع هذا لم تدغل في الظهور بالطيبة أو الثرثرة بالحكمة ؛

إذا استطعت أن تحلم ولم تجعل أحلامك سلطانك ، وأن تفكر ولم تجعل التفكير كل غايتك ، بل قمت تسعى لتحقيق ما انتهيت إليه من رأيك ؛

إذا جاءك النصر أو نزلت بك المصيبة ، فسويت لهذين الضيفين الخالين المخادعين من نفسك ، وعدلت بينهما في النصيب من لقائك ومعالجتك ؛

إذا استطعت أن تسمع الحق الذي قلت يُحرِّف كلمه أدنياء ، ويلوِّي معانيه سفلة خبثاء ، يحفرون به الحفر للوقيعة بله أغبياء ، أو أطقت أن تقف تنظر إلى أشيائك التي أنفقت ساعات حياتك في صنعها تُكسر وتُحطَّم ، ثم قمت تبنيها بأداة مَبْرُوءة بالية ؛

إذا استطعت أن تكوِّم كل مكاسبك كومة واحدة وتقامر بها فتفقدها كلها مرة واحدة ، ثم عدت تبدأ من حيث بدأت أولاً ، ولم تخرج أنفاسك بكلمة تنبس بها عن خسائرك ؛

إذا قدرت وقد أدبر عنك كل شيء أن تهيب بقلبك وأعصابك وأوتار عضلاتك لتُرجِعَ لك المدبر وقد فات وتولَّى بعيداً فتثابر جميعاً حين لا شيء فيك يهتف لها بالمثابرة إلا إرادتك

إذا استطعت أن تخاطب عامة الناس ودهماءهم وتحفظ على نفسك فضيلتها ، أو تسير مع الملوك جنباً إلى جنب ولا تضيع مع ذلك مسحةً تميز عامة الناس ودهمائهم ؛

إذا عجز الأعداء الألداء والأحباب الأقربون عن أن ينالوك بأذى ؛

إذا اعتمد عليك كل الناس ولم يغلوا في ذلك ؛

إذا قضيت الدقيقة القاسية التي لا ترحم من دقائقك بجرية تجريها تدوم ستين ثانية ؛

إذا كان ذلك فلك الأرض وما عليها ، وأفضل من هذا أنك تكون رجلاً يا بني

« ز ك »